

حواء / شذا شرف الدين: كافكا أدخلني عالم الرواية

«نحن أبناء الماضي لا أسراه»

09 أكتوبر 2012 12:00 ص |



تعود شذا شرف الدين في «باكورة» رواياتها إلى الماضي، وصور من الذاكرة، الحقيقية أو المتخيلة، لتحكي عن تجربة تلقى تعليمها وسط الراهبات، أي *في مدرسة مسيحية، هي المسلمة، ولكن الموضوع لا يُختزل في ذلك.

فشرف الدين تروي عبر تجربتها حكايا أخرى كثيرة تمسّ المجتمع في العمق، وتطرح المسائل بلا مواربة، لنغوص معها في رحلة ممتعة.

درست شرف الدين التربية المختصة في سافيني (سويسرا) ورقص اليورثمي في هامبورغ (ألمانيا). وبعدها أمضت سنين عدّة في ممارسة الرقص وتعليمه في سويسرا ومن ثم في بيروت، انتقلت إلى برلين وعملت في المجال الثقافي والفني حيث شاركت في تنظيم العديد من التظاهرات الفنيّة فيها كما في بيروت بالتعاون مع مؤسسات ثقافية ألمانية ولبنانية.

«فلاش باك»، عن دار «الساقى»، هو إصدار شرف الدين الأول، رغم أنه يعتبر عصارة تجربة طويلة مع الكتابة.

«الراي» التقت الكاتبة وكان لنا معها الحوار الآتي:

• بداية، هل يمكن أن نخبرنا قليلاً عن شذا شرف الدين؟

- دراستي الأولى كانت في التربية المختصة، وبعدها درست الرقص في ألمانيا. عملت نحو 12 عشر عاماً في هذا الإطار وعلمت الرقص. بعدها، اضطررت أن أتوقف لأسباب صحية، واتجهت بشكل أكبر نحو الفن البصري، والمعارض، والكتابة.

• متى بدأت بالكتابة؟

- أكتب منذ سنين عدّة، ولكنني لم أنشر كتاباً قبل «فلاش باك». نشرت نصوصاً وقصصاً قصيرة في صحف ودوريات ثقافية، ولكن لم تكن الكتابة مهنة بالنسبة إليّ. كتبت هذا النص «فلاش باك» منذ زمن، أي قبل نحو سبعة اعوام. طبعاً، لم أكتبه كما هو الآن. كتبت أساس النص وخطوطه العريضة.

• هل استغرقت كتابته وقتاً طويلاً؟

- كانت الفكرة أساساً أن أجمع قصصاً لفتيات من جيلي درسن في مدارس الراهبات، باعتبار أن هذه تجربة خاصة لم تُكتب عنها نصوص كاملة من قبل. أردت أن أستعين بصديقات من سن الدراسة لنجمع تجاربنا في كتيب صغير. ولكن كنت قد فقدت التواصل مع زميلاتي، فطلبت ذلك من إحدى الصديقات. وبالفعل، كتبت النص، لكنّه أعجبتها لدرجة أنها رفضت أن تُنشره مع نصوص أخرى. قرّرت بعدها أن أكتب عن تجربتي الخاصة بشكل أوسع ومنفرد. وحصل الأمر بشكل سريع، ثم أضفت وعدّلت أموراً عدّة.

• كيف اتخذت قرار النشر؟

- شعرت بأنّ هذا النص يجب أن يُنشر، خصوصاً أنّني لم أقرأ رواية أو نصاً كاملاً عن هذه التجربة، تجربة مسلم في مدرسة مسيحية. قد يكون الأمر مذكوراً في سياق نصوص أخرى، ولكن ليس من نص بأكمله مخصص لهذا الموضوع. هذا على حدّ علمي على الأقلّ. كذلك وجدت من الضروري مشاركة آخرين تجربتي الشخصية في ما يخص اكتشافي للأمر التي لعبت دوراً أساسياً في بناء هويّة لجيلي وأجيال سابقة ولاحقة والتي تحدّدها علاقتنا بمفاهيم معيّنة كالعروبة والإسلام وبقضايا الصراع العربي الإسرائيلي وتحرير فلسطين الخ. هذه المفاهيم التي بُني على أساسها الكثير من الفراغ في رؤوسنا.

• «فلاش باك» هو عودة إلى الماضي، إلى أي حدّ نحن مرتبطون بذاكرتنا وماضيها؟

- نعم، إلى حدّ ما، ولكن ليس لدرجة أن نبقى أسرى الماضي، فلا نعود قادرين على رؤية سواه. الماضي جزء من حياة الإنسان، يحمله في داخله. الأمر الذي يشكّل فارقاً هو مدى قدرة الإنسان على استيعاب الماضي وتحويل التجربة إلى دافع للتغيير.

• كسرت «تابو» في روايتك، خصوصاً أنّك تحدّثت عن الدين في مجتمع محكوم بالطائفية، هل شعرت بالخوف من ردود الفعل؟

-ترددتُ قليلاً قبل أن أضع عنوان «إسلام ومسيحية» على سبيل المثال لأحد فصول الكتاب، ولكنني عدت وقلت لنفسي إنَّ هذا هو واقع المجتمع الذي نعيش فيه ولا معنى للخوف في هذه الحال. أظن أن الوقت قد حان لنكسر هذا الخوف.

• ماذا غيّر في شخصيتك وجودك بين الراهبات؟

- أتصوّر أن تأثير الراهبات عليّ، أو وجودي بينهنّ، كان له جانبان، جانب إيجابي وجميل مرتبط بالفن والتعرّف إلى ثقافة أخرى، خصوصاً أنّي كنت قادمة من ثقافة متماهية مع هويتها. ارتبطت بثقافة مختلفة تماماً، وهذا أمر إيجابي إذ يفتح أمامك أفقاً جديداً، ويكسبك رؤية مختلفة لما حولك. تجربة الكنيسة، على سبيل المثال، كانت مذهشة وجميلة، مليئة بالصور والروائح والموسيقى. ربما الشق الفني الذي عندي أتى من هناك. أما الجانب السلبي فطبعاً كان متعلقاً بالفرقة الطائفية، وقد كانت واضحة، الأمر الذي دفعني إلى الكثير من التساؤلات، وكوني مسلمة شعرت كأنني قمت بأمر خاطئ. طبعاً، بعدما يكبر المرء، يتغير هذا الشعور.

• كيف تغلّبت على هذا الأمر؟

- أظنّه حدث تلقائياً وأنا أنمو، وأتحرر من هويتي المحدودة كمسلمة شيعية وابنة فلان، تسكن في منطقة معينة. كلما تكبرين، يتعزّز شعورك بالفردية وتنتمين أكثر إلى نفسك، إلى حياتك الخاصة وتجربتك الشخصية، ويصبح بذلك التمييز أمراً نسبياً، وغير أساسي، وخصوصاً أنني هاجرت وتركت البلد.

• هل دفعك ذلك للتساؤل عن هويتك الدينية؟

- ليس بالضرورة. التساؤل عن هويتي الدينية كان موجوداً أساساً منذ كنت صغيرة. تساؤلاتي حول الإسلام أتت من تربيتي أساساً وليست متعلقة بوجودي بين الراهبات. كانت تربيتي منفتحة نوعاً ما، حتى بلوغي سن المراهقة. عندها، بدأ أهلي يتغيرون، ولكن في هذه السن، تكوينين قد كوّنبت إلى حد ما مفاهيم معينة خاصة بك. بدأ أهلي يطلّبون أموراً مفاجئة كالصلاة والصوم، وهذه الطقوس لم أكن معتادة عليها من قبل.

• المأزق الطائفي في لبنان، هل ترين مخرجاً له؟

- لا أعرف. الأمر الإيجابي في لبنان هو أن الطائفية معلنة، بينما قليلاً ما يتناولها الحديث الصريح في بلدان أخرى، رغم كونها واقعاً.

• الصور الموجودة في الكتاب كلّها صور رجال. وتوجد صورة الرجل الأفريقي الذي هو شخص حقيقي ولكن لا تملكين صورته؟

- أردت أن أطرح من خلال الصور نماذج الرجال التي كان محيطي يتوقع دائماً أنها صورة الرجل المثالي والتي لم تكن كذلك بالنسبة إليّ، والدليل على ذلك أنني اخترت رجلاً مختلفاً كلياً ولا يشبههم في نهاية المطاف. أما الرجل الأفريقي، فهذه الصورة مركبة من ذاكرتي عنه، فقد كان هو من يخبرني القصص في طفولتي.

• عودةً إلى الكتابة، كيف تصفين علاقتك بالأدب، وبمن تأثرت؟

- في البداية، كنت أقرأ الشعر والمسرح أكثر من الأدب، ولم أكن فعلياً أحب الرواية، أو أشعر بأن الأدب يخاطبني، إلى أن قرأتُ كافكا. دخلتُ بعد ذلك عالم الرواية، إذ كان كافكا بمثابة اكتشاف كبير بالنسبة إليّ. قرأت العديد من الروايات الألمانية والفرنسية، واكتشفت أخيراً الرواية العربية، وتحديداً مع الروائي اللبناني حسن داوود، والمصري يوسف زيدان.

• أسلوبك اللغوي أقرب إلى «السهل الممتنع». توجد في كتابتك لغة بسيطة وشديدة العمق في الآن نفسه، إضافة إلى لمسة شعرية. كيف تكونت لغتك الأدبية؟

- أعتقد أن القراءة تساعد كثيراً. وقد يكون هذا كتابي الأول، إنما الكتابة ليست جديدة بالنسبة إليّ. كتبت كثيراً وحاولت أن أصح نفسي وأتعلّم، حتى أن بعض كتاباتي كانت نوعاً من التمارين. درست أيضاً قواعد اللغة في الكتب بعد ابتعادي عن لبنان. لا أعرف إذا كان لديّ أسلوب بعينه إلا أنني أظن أنه يتمّ صقل أسلوب أو أساليب الكتابة مع تراكم التجربة.